البناية تم اعتقاله (١١٦-٧).

ومن المواقف المشرفة للقاضي محمد زيادة لما تقدم في اعلانه عن تحمل المسؤولية كلها شخصياً أمام الجنرال همايوني، نود ان نعرض بعض المواقف التي ذكرها إيگلتون، ومنها عندما تأزمت الامور واصبح سقوط مهاباد مؤكداً بعد ان وافق الاتحاد السوفيتي على اسقاط اذربيجان ارتأى بعض العاملين في الحزب مغادرة مهاباد واللجوء الى العراق أو الاتحاد السوفيتي ووافق القاضي محمد (رئيس الجمهورية) على قرارهم واخذهم لما يحتاجون من متاع وذخيرة، لكنه اخبره بأنه سيبقى في مهاباد ولايغادرها وكانت غايته محاولة حماية من في المدينة من مواطنين (١١٣).

واما الموقف الآخر، يظهر عندما طلبت منه المحكمة ان يوكل محامياً، فطلب محاميين كانا في طهران وهما ضابطان في الجيش واللذين قد عرفا بأفضل اثنين في حقل القانون ولكنه اعلم انه لايمكن جلب محامي من خارج المحكمة لان جلب محامي من طهران سيؤخر المحاكمة وقد تتأجل أو تتأخر اكثر اذا ما طلب محامياً من لندن وهذا معناه ان المحكمة لن تعقد.

ان هذا الجواب التعسفي من قبل المحكمة لم يفوته القاضي محمد وهو في ذلك الظرف العصيب فأجاب المحكمة، لو كان على هذا القرب من لندن لما كان اليوم في المحكمة.

لقد كشف في إجابته هذه انه لم يفقد فطنته وظرافته وموهبته في المناظرة والجدل (١٢٢).

ولقد قرئت في المحكمة رسالته الى القائد العسكري التي تضمنت شعراً للشاعر الفردوسي، يذكر فيها:

"نحن نفضل الموت الواحد تلو الآخر على ان نسلم الوطن للعدو"

ثم يقول في رسالته مخاطباً القائد العسكري انتم في القتال تشوهون بيتي الفردوس فيصبح على هذه الشاكلة:

"ندير بظهورنا الى العدو الواحد تلو الآخر فهذا أفضل من الموت لأجل الوطن*" (١٢٥).

محمد باشا أمير راوندوز

لقد وردت في رحلة فريزر الى بغداد عام ١٨٣٤ اليوميات التي كتبها الدكتور روس وضمنها فريزر في مذكراته.

لقد زار الدكتور روس طبيب المقيمية البريطانية في بغداد راوندوز في عام ١٨٣٣ بناء

* الترجمة الى العربية تفقد البيتين جرسهما الشعري.

على رغبة محمد باشا أمير راوندوز لفحص ومعالجة عيون والد محمد باشا اذ كان يشكو من عينه، فقد وجه الأمير طلباً الى الكولنيل تايلور المقيم البريطاني في بغداد يرجوه ان يوفد له طبيباً بريطانياً يعيد البصر لوالده مصطفى باشا، وكلف الدكتور روس بهذه المهمة وتوجه من بغداد الى راوندوز في قافلة يرأسها عم الأمير بايزيد بك الذي كان قد جاء الى بغداد للاتصال بالمقيم البريطاني.

لقد استقبله الباشا استقبالاً حسناً كما يذكر الدكتور روس ولكنه تقصد في ان لاينهض من مكانه بل اثر الاستمرار في الجلوس وهو يرحب بمقدم روس، ولكنه ارسل من يعتذر منه لهذا الموقف من بعد مبرراً ذلك انه أي محمد باشا أمير راوندوز كان محاطاً بأناس جالسين لم يتم إخضاعهم الا مؤخراً ولان الوقوف بوجودهم ينطوي على التساوي بينه وبين الباشا في نظرهم، وهذا مما قد لايكون في مصلحته ان يفعله أو يعترف به امام ملأ من الناس. ونعتقد ان سبباً اخر ايضاً يمكن ان يكون له دوره فقد وجدنا اشارات من الرحالة الاجانب الى ان الرؤساء الكُرد كونهم مسلمين يتحاشون القيام لتحية الرحالة المسيحيين فيحاول ان يختلق موقفاً عند اللقاء لاسيّما اللقاء الاول في ان يكون هو أي الرئيس الكُردي القادم والرحالة هو الجالس المنتظر لكي يقوم ويحييه أو ان يفتعل موقفاً كأن يكون واقفاً قبل دخول الرحالة عليه (٢٣).

هذه المواقف في الحقيقة لا اساس ديني لها من وجهة نظرنا فالله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يذكر (وكرمنا بني ادم) ولكن هذا مظهر من مظاهر التعبئة الذهنية الخاطئة.

يكتب روس إنطباعاته عن محمد كور باشا أمير راوندوز، إذ ألفاه رجلاً وسيم المظهر محباً للخير يبلغ الخامسة والاربعين من العمر تقريباً. كما وجده ابيض البشرة تبدو فيه آثار الجدري، وقد اعورت احدى عينيه واصبحت منخفضة معتمة. وكانت لحيته تبلغ حوالي اثنتي عشرة بوصة في الطول ذات لون بني خفيف ولم يمشط نصفها الاسفل ولذلك كانت ملبدة بعضها ببعض.

اما من النواحي الأخرى فقد كان مرتب اللباس والهندام. وكانت احدى رجليه مصابة بالعرج لرفسة اصابته من احدى الخيول، كما كان يتكلم بصوت خافت، هذا ما ورد في رسائل فريزر.

لقد دخل في حديث طويل مع الدكتور روس اكثر من مرة في مواضيع عامة غالباً، فاستفسر منه عن طريقة التعليم في إنكلترا، وديانة اهل الصين والهند، وقد كان يرغب في معرفة علاقة بريطانيا بإيران وروسيا، ثم استفسر منه في مناسبات أخرى عن اشياء كثيرة مثل استعمال الادوية وتأثيراتها وحالة النبض في أثناء المرض، وعن الطاعون والهيضة وغير

ذلك وانتقل بعد ذلك الى مواضع الحرب فتحدث عن الطبنجات والمسدسات واخرج طبنجة إنگليزية قديمة ذات سبطانتين وبندقية فكانت هذه مع سيف وناظور وشمسية وسرير خشبي وعدد من المحافير تكون القسم الاكبر من اثاث خيمته.

ومن الامور التي ذكرها روس عن حياة أمير راوندوز، انه كان يقيم اجتماعين في اليوم قبل الظهر وفي الليل في خيمة قرب خيمته وهو لايذهب للنوم مطلقاً قبل بزوغ الفجر وعندذاك ينام الى التاسعة أو العاشرة من الصباح التالي وقبيل صلاة العشاء بربع ساعة يعزف جوق صاخب شيئاً من الموسيقى، وفي وقت الصلاة تطلق اطلاقة مدفع.

ويصف روس المعسكر المحيط بالأمير ثم يتحدث عن مغادرته لراوندوز، ويغتنم الدكتور روس فرصة المغادرة والسير في منطقتين متباينتين سياسياً، منطقة يحكمها أمير كردي، أمير راوندوز ومنطقة يحكمها الأتراك.

يذكر فريزر هذا عن روس نفسه اذ يقول: في اللحظة التي وصل فيها هذه الجهات ويقصد المنطقة التي كانت تدار من قبل الدولة العثمانية، حتى فوجيء بطلبات البخشيش، وبعد تجريده من كل ما كان يمكن ان يكون قد حمل معه فان الاوغاد المناكيد تبعوه الى منزله (محط نزوله) طالبين المزيد. اما في ممتلكات راوندوز فان البخشيش لم يذكر قط، وقد اجرى الدكتور روس مقارنات في كل ناحية من النواحي بين حكومة علي باشا في بغداد وحكومة أمير راوندوز الكُردي وهو يعطي الافضلية للاخير ويشير الى احاديث الخيانة التي كان يصرح بها علانية بالنسبة لعلي باشا بينما كان الاطراء والثناء على أمير راوندوز يلهج بها الجميع بصراحة (١٧-٢٥).

محمد كويي

يصفه المستر هَيْ انه كان رجلاً في منتصف العمر، طويل القامة على حظ كبير من العلم والمعرفة ذا موهبة خارقة في الاكثار من الكلام، فحيثما يكون تجده يحتكر الحديث، ومن حسن الحظ انه موهوب بفطنة عريضة تصبره اشد الناس ايناساً. انه ليفخر دوما بانه اعلم علماء كُردستان طراً، وتلك هنة من هنات طبقته. وكان ان غدا (حاكم الشرع) في مدينة كوي تحت ظل الادارة البريطانية وعلى الرغم من ان علمه فوق الشبهات الا ان سداد حكمه كان يكتنفه التساؤل غالباً ذلك انه روحاني دنيوي، شغوف بالمجتمع وحطام الدنيا (١٦٤).

محمود باشا أمير بابان

يقول ريج عن موكب محمود باشا (امير بابان) عندما طالعه لاول مرة، كان موكباً بدائياً مفرحاً وكان الباشا وحده في الموكب يمتطي جواداً اما جسمه فكان صغير الجرم جداً حتى انه كان يختفي عن الأنظار وسط جمهور الكُرد الطويلي القامة، وكان عمره خمساً وثلاثين سنة. والباشا يرد على تحية حرس ريج بوقار عظيم إذ يضع يده فوق صدره ونستطيع ان نلتمس هذا الإنطباع بين سطور ريج بسهولة، أي نزعة الباشا إلى إحترام الغير وكونه شخصية وقورة، وعندما يريد الباشا التعبير عن بالغ إحترامه بالضيف فانه يصافح بكلتا يديه.

ولاحظ ريج ان الباشا يغالي كثيراً في إظهار الإحترام، وقد حاول ريج كثيراً إقناع الباشا بان يجلس بشكل مريح لان الباشا كان مصراً على الجلوس بشكل غير مريح ليظهر مشاعر الإحترام بالركوع مستنداً على كعبي قدميه (٥٠-١). وقد رحب الباشا مرة بعد أخرى بريج لزيارته كُردستان مكرراً لكلمات المجاملات الشرقية.

ويذكر ريج انه سلم محمود باشا رسالة باشا بغداد ولما كانت الرسالة رقيقة جداً فقد حاول ريج ان يسلمها إلى محمود باشا على مشهد من حاشيته وملازميه، ويذكر ريج ان الباشا أدرك إهتمامه (٥١) ويبدو ان ريج أراد تقوية مركز الباشا امام حاشيته وأركانه فقد كان يعرف ان المؤامرات تحاك ضده وان موقفه بات ضعيفاً بعد ان عانى من قمع الآخرين لسلطانه وكذلك الصعوبات التي يكابدها بسبب وضعه على حدود سلطتين متنافستين لاتنفك الأولى عن اضطهاده في طلب الجزيات والضرائب إلى إيران والثانية وهي السلطة المنقاد اليها حكماً اي سلطة الأتراك الذين كانوا يريدون قطع علاقته نهائياً بالفرس وان لايدفع لهم جزية أو مالاً.

الحقيقة ان ريج قدر حالة القلق الشديدة التي كان الباشا يعاني منها فعلى الصعيد الخارجي كان الباشا يعيش بين قوتين متصارعتين على المنطقة مهدد من القوى الفارسية والتركية لا بل فان كُردستان هي ساحة احتدام طويل. اما على الصعيد الداخلي فقد عانى من الخيانات الداخلية والولاءات السرية من داخل الأسرة إلى مراكز قوى خارج الإمارة البابانية لا بل اكثر إذ تورط بعضهم بمؤامرات حقيقية مدفوعة للإطاحة به.

ويذكر ريج ان محمود باشا لم يكن يملك ما يميزه في شخصيته، فهو رجل بسيط رشيد وهو في الوقت ذاته رقيق الحاشية دمث الطبع وكذلك ان أخلاقه الفردية كاملة لا شائبة فيها وذلك امر لم يكن من الامور الاعتيادية بين الأكراد (٥٢) ولاندري كيف ولماذا هذا الإنطباع عن الكُرد عند ريج (١١) إذ ليس له من تبرير الا انه وكما يبدو كان يحمل هذا الاعتقاد قبل

وصوله كُردستان ولكن الاشهر التي قضاها في كُردستان جعلته يغير من إنطباعه منها هو يختتم رحلته بهذه العبارة:

"وإنني أبارح كُردستان بأسف لا حدّ له فما كنت أتوقع مطلقاً ان أجد فيها أطيب الناس الذين لاقيتهم في الشرق كله."

من زيارة ريج الأولى إلى قصر الباشا يمكن ان نستشف بعض الإنطباعات، فقد لاحظ ريج ان قصر الباشا لايليق في الحقيقة بقصر حاكم (٥٦) كما لاحظ ان الباشا يصبح حيوياً اكثر عندما يكون الحديث حول النسب العشائري ويرغب في ان يمتدح نفسه وان يذكر انه من أسرة عريقة وعشيرة كريمة (٥٧) ولكن في الوقت ذاته لم يكن الباشا على ما يبدو مغروراً أو مغرماً جداً بتاريخ عائلته أو بالأحرى الإهتمام بتدوين هذا التاريخ. يبدو ذلك في إجابة الباشا إذ يذكر ريج عند بحثه تاريخ كُردستان وتجرأ فذكر استغرابه لقلة اطلاع الباشا على تاريخ عائلته أجاب بأدب واحتشام بان ذلك التاريخ لايستحق التدوين ولم يكن تاريخ عائلة مالكة بل هو تاريخ قبيلة متواضعة. فاجابه ريج ان عائلته عريقة وشريفة. فاجاب بأنها لم تكن موغلة في القدم ولم يصبح أبناؤها باشوات الا منذ عصر واحد. فقال ريج انه يعرف سلالة عائلته منذ ذلك العهد فوقع قوله في نفسه وقعاً حسناً وتحركت عنده على الفور عصبيته القبلية وعزته العائلية فانجلت ملامح وجهه وداخله انتعاش لم يكن اعتيادياً على حد تعبير ريج وقد عقب الباشا بعد ذلك بانه غير شغوف بالتاريخ خلا تاريخ الأولياء والأنبياء اما غير ذلك من التواريخ فلايقرأ منها الا الشاهنامه (٢١٤).

ومما تقدم نستنتج ان الباشا كان يجمع بين نزعتين في شخصيته المركبة فهو يملك نزوعاً قبلياً ويشعر باعتزاز بإزاء انحدار سلالته ولكنه في الوقت ذاته يشعر بتواضع كبير ولايريد ان يبدو مميزاً قبلياً أو سلالياً عن رعيته فضلاً عن ان جانب النزوع الديني الذي كان يسمو لديه على كل شكل من أشكال التفوق الاجتماعي أو السلالي. فهو الذي اخبر ريج بانه غير شغوف بالتاريخ ما خلا تواريخ أولياء أنبياء.

لقد كان الباشا ذكياً وعادلاً عندما أومأ ريج إلى أن والي سنه من عائلة قد لاتحظى بإحترام عشائري كبير وعلى الرغم من ان هذه العبارة أطربت بعض الحضور العشائري الا ان الباشا اجاب ريج بان والي سنه من عائلة عريقة جداً وهو أي باشا السليمانية من عشيرة اسمها في الأصل (كرمانج) (٥٧) ولاحظ ريج ان الباشا عندما يتحدث عن امور تاريخية لايتمكن من ذكر التواريخ وان كل ما يعرفه هو ان اجداده كانوا ذوى شأن ثم خصصت لهم باشوية. اما عن التاريخ القديم فقد استهوته قصة زينفون ورحلة العشرة آلاف ولاحظ ريج علائم الإهتمام على وجهه وهو يسمع عن أجداده الكُرد ودورهم في صد الهجوم الأجنبي

(٧٦) ان إنطباعات ريج عن الباشا انه شخص كريم يحب الضيف، فلقد امر الباشا ان لايشتري ريج شيئاً من حسابه الخاص طيلة أقامته في السليمانية وكذلك اغدق عليه الهدايا ويذكر ذلك في اكثر من موضع (٥٣).

ويخرج ريج من احدى زياراته للباشا وهو في أسبوعه الثاني لزيارة السليمانية، بإعجاب شديد بالباشا إذ يذكر انه قضى ساعة ونصف معه وكانت عنده من أطيب الأوقات ويقول بعد ذلك اللقاء، انه يتميز بخلق متين، متواضع، غير متكلف إلى حد يجعل الحديث معه مؤنساً ممتعاً.

يذكر ريج انه سأل الباشا لِمَ لايلبس الدرع وهو اللباس الحربي المفضل لدى الأكراد؟ فاجابه انه لايقوى على حمله (٧٧). ويعلق ريج انه لو سئل اكثر الشرقيين هذا السؤال لاجابوا بانهم لايحبون ذلك، أو انهم يأنفون من وقاية أنفسهم في المعارك، ويقصد ريج ان الشرقيين على عكس الغربيين، فالغربيون يرتدون الدروع في المعارك وفي احدى زيارات ريج للباشا وجد الباشا جالساً في ساحة معشوشبة واخبر ريج بانه أمر باقامة مباراة المصارعة لكي يدخل البهجة على قلب ريج ولكنه قال انه لايستذوق هذه الامور البتة (٩١). ولاشك ان مثل هذا التقرير عن الذات يعطي ريج إنطباعاً ان الباشا شخصية طيبة غير قاسية فهو لايستذوق حتى (مشاهدة) المصارعة والحقيقة ان معظم الناس الذين لايرغبون مشاهدة الألعاب الجسدية القاسية هم اناس ميالون إلى المسالمة والرأفة والنزوع الإنساني في التعامل اليومي وهذه وجهة نظرنا من الناحية العلمية النفسية.

كان ريج يرى محمود باشا من خلال مشاعره التي افصح عنها إلى ريج، انه إنسان على درجة عالية من الإحساس والإخلاص وحسن السريرة، ويقول ريج في هذا الصدد وهو يصف الباشا عندما تحدث عن مشاعره بعد ان اكتشف خيانة عمه له، انه لايتذكر ان لمس مثل هذه الإحساس وحسن السريرة في الشرق مطلقاً ويفصح عن اعتقاده بانه لن يجد مثل هذا حتى في البلاد الراقية كثيراً، فقد كان الباشا صابراً مكابراً امام خيانة عمه له (١٠٤).

اما عن التدين أو النزعة الدينية لدى الأمير فان ريج ذكر انه لاشك وبدون استثناء ابعد المسلمين الذين عرفهم عن التصنع واتقاهم فعلاً. وقد قص محمود باشا قصة واقعية على ريج كانت قد حدثت له ليوضح له دور الايمان بالله. فقد حدّثه أيام كان رهينة في كرمنشاه تعبيراً عن ولاء والده وقد اضطر والده ان يؤيد مصالح تركيا في ظرف ما واصبحت حياة محمود باشا الابن في خطر وقد ارسل الشهزاده في طلبه ليلاً ليقتله. ويصف محمود باشا كيف ان الهلع اخذ منه مأخذاً والجلاد واقف ينتظر الإشارة ويقول اني اعترف ان قواي خارت ولكني في لحظة تذكرت الله فاستنجدت به وسمعت وكأن صدى صوت الله يدور في نفسي وهو يقول الم

أخرجك من بطن امك ووقيتك الأخطار حتى الساعة؟ الست بالقادر على القضاء عليك في أي لحظة أشاء؟ إذن لم هذا الخوف؟ ليس بوسع الرجل ان يسيء اليك دون إرادتي. ويقول في تلك اللحظة شعرت بالراحة والطمأنينة، وعدل الأمير عن رأيه في قتلي وارسلني إلى سجني مرة ثانية (١٠١).

ان ريج إذ يسوق هذه القصة في مذكراته انما يريد ان يطلع القاريء على مدى ايمان محمود باشا بالله وارادته.

يذكر لنا ريج إنطباعاته عن محمود باشا عندما توفي نجله الثاني اذ يصف أثر الوفاة على نفسية الباشا لقد بدا بجلاء ان قلب الباشا كاد يتفطر على الرغم من تجلده ومحاولته اخفاء ما يعانيه بكل رجولة. وقد صعب على ريج ان لايشاطره احزانه، أو ان لايشعر برهة وكأنه فقد ولده. ويذكر أيضا انه لم ير مطلقاً فاضلاً فياض الشعور والإحساس في أي بلد كالباشا، انه يحب زوجته وأولاده حباً جماً لايضاهيه في ذلك الا احسن الرجال في اوربا. وقد بدا عليه نوع من الذهول المخيف اعتراه بغتة فودعه ريج متألماً مثقلاً بالأحزان (٢١٥-٦) وعندما عاد ريج إلى الأمير بعد خمسة أيام كما يظهر من التاريخ المدون في مذكراته، وجد الباشا ما زال مغتماً ويتنهد باستمرار تنهداً عميقاً وعلى الرغم من ان ريج كان قد زار الباشا هذه المرة لغرض الوداع لكن الباشا اغتنم هذه الزيارة فتحدث في مواضيع دينية وسأل ريج عن عدد الأناجيل سواء السماوية منها أو الموضوعة من قبل البشر بوحي من الله وهل سيظهر المسيح ويبسط سلطانه على الارض؟ أو هل انه سيظهر يوم الحساب؟ (٢٢٢).

ويبدو ان مجموعة من العوامل النفسية كانت قد المت بالباشا في تلك الأيام وبخاصة موت ابنه وخيانة عمه له، مما شجع لديه الرغبة في اعتزال المسؤولية، هذا ما عرفه ريج من عثمان بك شقيق الباشا. ويقول ريج إزاء رفض عثمان بك فكرة ان يعتزل اخوه كانت رغبة الباشا منحصرة في العيش بسلام والاعتزال مع زوجته واولاده وان يتنازل عن امارة بابان، وانه يبذل قصارى جهده لارجاعه عن عزمه. وهذا ما يقدر عليه ويزيده شرفاً إذ لو تم تنازل الباشا عن منصبه لخلفه هو في منصبه (٢١٨).

ان ما تقدم حول رغبة الباشا التي يذكرها ريج تجعلنا نقرر ان الباشا كانت تعوزه قوة الشخصية والقدرة على مجابهة المواقف العصيبة التي هي من صفات الشخصية القيادية المتمكنة الناجحة فلايكفي ان يكون القائد طيب القلب مؤمناً. ربما الوراثة حمّلت محمود باشا أمير بابان ما لم يكن مؤهلاً له فالأوضاع التي كانت عليها إمارة بابان ذاك الوقت بحاجة إلى زعامة قوية حاسمة قادرة على اتخاذ القرار.

يعلق ريج عن شخصية الباشا التي ذكرناها أنها ضعيفة بقوله، ان خطأ الباشا الكبير هو

ضعفه وإحترامه للأتراك الإحترام الكلي المنبعث في الحقيقة عن الشعور الديني وقد عبر ريج عن استغرابه الشديد لضعف الباشا النفساني في هذا الشأن وكان يشعر بالأسف من شدة انخداعه بباشا بغداد الذي اعتاد ان يسميه عندما يذكره بـ(افندمز) أي سيدنا.

ويستطرد ريج يقول لو كان يقدر قوته ومصالحه حق قدرها لكان من المحتمل ان يجعل باشا بغداد منقاداً إلى ما يريد والى معاملته المعاملة اللائقة به (٢٢٣).

ان وداع ريج للباشا يعطينا مؤشراً واضحاً عن شخصية الباشا العاطفية، إذ يذكر ريج عندما ودعه انخفض صوته وارتجفت يده وهو يصافحه ويقول، لقد كنت شخصاً مكتئباً مثله لمفارقتي اياه، لقد رجاني ان يراني ثانية (٢٣٠).

لقد كوّن ريج إنطباعات واضحة عن شخصية الباشا من خلال مجمل لقاءاته إذ يذكر صعوبة المفارقة الأخيرة لرجل عديم الإكتراث ثم يسأل كيف وانت تفارق رجلاً توده وتحترمه؟ ويقول كان محمود باشا رجلاً محبوباً جداً في الحقيقة واني سأتذكره على الدوام بشوق فملامحه النقية لاتنم الا عن الطهر والإخلاص والبساطة وما كنت اتوقع مقابلة رجل مثله في الشرق كما انني اخشى ان لايجد المرء الكثير من امثال هذا الرجل في بيئات ارقى. ان المرء ليلمس الحزن والرقة في خلقه ذلك مما يجعله رجلاً لطيفاً جذاباً فهو الاحساس بعينه. انه لم يتغلب حتى الان على ما داهمه من الاحزان لوفاة ولده وانني أدون رأيي مطمئناً لما أقول ان ليس هناك رجل في الشرق يحب اولاده وزوجته كحبه لهم.

يذكر ريج مدى تأثر الباشا بسبب موت إبنه، فعندما دخل الباشا على حرمه للمرة الأولى بعد المصاب ناداه طفل من أبناء اخيه بكلمة بابا. لقد كان الاسم وصوت الطفولة الذي ردد الاسم اكثر مما يحتمله الباشا فصرخ وسقط على الارض مغشياً عليه، هذا مع العلم كما يذكر ريج ان الدين الإسلامي منع الاحزان وان الافراط في الشعور بإزاء المرأة أو الولد من الامور الشائع نكرانها أو الازدراء بها بين المسلمين، الامر الذي يعزز جمود الشعور وصلابة النفوس. ويضعنا ريج أمام تقرير ذكي عن شخصية أمير بابان فهو وكما يذكر من اقوى الناس تمسكاً بدينه في الشرق الا ان تمسكه هذا لم يعطه التعصب والركود في الاحساس. وربما كان بامكان رجل اقل منه حظاً في الخلق ان يكون اكثر ملاءمة لحكم كُردستان، وان محمود باشا لم يكن بالزعيم الذي تحتاجه تلك البلاد لان فضائله جديرة برجل يعيش عيشة خاصة إذ انه كان لين العريكة جداً كثير الثقة بغيره ولايقدر نفسه الا باقل ما تستحق مع كونه شجاعاً في ميدان القتال فقد كانت تعوزه جرأة المدني اللازمة، لقد جعله الدين والتفكير قليل الاكتراث بالاخطار كما افقده الحزم والعزم ايضاً وهذا رأي ريج.

لقد كان بميسور أي رجل يقوده فكان يركن إلى أي فرد يتقدم لمعونته حتى في الامور التي

تخالف رأيه الراجح ومع انه كان بشخصه مثالاً للصدق والشرف فقد كان يجهل أساليب ارباب الدهاء الذين كانوا يموهون أسوأ خططهم الجهنمية بالصبغة التي ترضيه، وعلى الرغم من وقوعه مراراً على خدعهم كان يظل على ثقته بهم ذلك لانه كان ببساطة الطفل الصغير ووداعته فلقد استطاع داود باشا، باشا بغداد العثماني، مؤخراً ان يفسد أخاه عليه وحاول تحطيمه لكنه وجد الان من مصلحته ان يكسبه إلى جانبه واظهر له كثيراً من التودد والإحترام وقد تناسى محمود باشا كل ما حدث في الماضي. (٢٣٠-١)

ويذكر ريج انه سعى ليحرك فيه الشعور القومي والعائلي ولكن دون جدوى، لكنه أي ريج احس بوجود قليل من الحماسة عنده عندما كان يتطرق إلى تاريخه القديم الا ان تلك الحماسة ما كانت الا سراباً لان اخلاقه تتصف بالدين والتواضع الممتزجين بالاوهام والقنوط مما يجعله منقاداً كل الانقياد إلى ما ترسب في اعماقه من الخزعبلات المثبطة ويعزو ريج ذلك إلى الدين لانه كما يذكر وجده متجرداً تجرداً تاماً من كل ما يتعلق بنفسه أو ببلاده وذا فطرة عنيدة لاتطاوع الغير وكان يظهر الصلابة بإزاء كل مناقشة لريج معه حتى قال له مازحاً ما إذا كان قد عزم على استعمال مهارته في ايجاد العراقيل لإصلاح بلاده. ثم تحدث الباشا عن قلقه بسبب حساب الآخرة متسائلاً لِمَ إختاره الله حاكماً؟ (٢٢٩).

محمود الحفيد

بالرغم من عدم التقاء هاملتون بالشيخ محمود بيد ان علاقاته مع اقرانه وسماعه لاخبار هذه الشخصية الكُردية جعلته يصف الشيخ محمود بالزعيم العظيم الذي حاول انشاء دولة كردية مستقلة عن العراق ولثلاث مرات (٦٢).

ويمكن ان نتعرف على شخصية الشيخ محمود من خلال معايشة كلارك الذي عايش الشيخ محمود كمستشار في البدء ثم تحول الى شبه أسير. ان النقيب كلارك كان في أربيل عندما التقاه هاملتون في ليلة عيد الميلاد.

ان هذا اللقاء فضلاً عن إلتقاء هاملتون شخصيات عملت مع الشيخ محمود قبل اندحاره جعلته يكون بعض الإنطباعات عن هذه الشخصية.

يرى هاملتون، انه لم تكتب بعد القصة الكاملة لثورة الشيخ محمود وكفاحه الطويل الذي يحدد ايمانه بمصالح قومه، مع انها قصة درامية مثيرة من الدرجة الأولى، ويضيف انه سمع في ليلة لقائه مع كلارك طرفاً عن هذه القصة التي كان كلارك احد ابطالها الرئيسيين في فترة من فصولها.

يذكر هاملتون عندما اعلن الانتداب البريطاني على العراق شعر الشيخ محمود ان كل خططه قد احبطت ظلماً وتعسفاً وقال ان قومه لايأملون التقدم والازدهار في ظل حكم بغداد.

وصدر الامر بانسحاب الضباط البريطانيين وابقي النقيب كلارك وحده اذ امر ان يبقى بوظيفة ضابط سياسي ومشاور للشيخ وقضى كلارك وقتاً عصيباً فالشيخ يبادله الصداقة والود الا انه مصمم على رفض كل أوامر تصدرها حكومة عربية ولكنه كان مثال الادب والرقة.

لقد شعر كلارك انه اسير ولهذا صارح الشيخ برغبته بالرحيل فسأله الشيخ عن موعد عودته واجابه كلارك، ربما بعد اشهر قليلة متقدماً الجيش الليفي والجيش العراقي فقال الشيخ محمود: اما هكذا واما عندما تأتي سفيراً عندما اتوج ملكاً لكُردستان وفي كلتا الحالتين ستحل ضيفاً عزيزاً في داري الحقيرة وسيكون بيتك ومقتناك في حرز أمين واجلب لي المفتاح واعدك بأنك ستجد كل شيء في موضعه كما تركته. ومع انك ستكون على رأس الحملة التي ستجرد عليّ فثق ان رجالي سيخفضون بنادقهم ويتجاوزون عن حياة صديقي الكريم.

وعندما اصطدم الشيخ محمود بالقوات البريطانية ظل محافظاً على حسن مسلكه معنا طوال الحرب ورغم قصف السليمانية، ويتحدث كلارك عن ضابطين بريطانيين اسيرين اصيبا بمرض فأرسل الشيخ الذي احسن معاملتهما رسالة الى القوات البريطانية يطلب طبيباً لفحصهما والعناية بهما وقال انه سيطلق سراحهما اذا حكم الطبيب بخطورة مرضهما ووجوب نقلهما الى بغداد. ومن خط الجبهة استقبل الطبيب بعبارات ترحيب اثرت عن الشيخ وسار به الى الاسير ولما فحصهما ان كل ما يشكوان منه وعكة سببتها حالة الاسر، فرأى ان الصدق يقتضي الايطلب اخلاء سبيلهما بسبب حالتهما الصحية وصارح الشيخ بذلك فما كان منه الا ان اطلق سراحهما (١٥٩-٦٠)

اما السير ارنولد ويلسن، فيصف الشيخ محمود بأنه كان مشكلتهم الصعبة، ويصفه بأنه كان طفلاً لا عن براءة بل عن جهل عنه (كذا) مع اطماع كبيرة وكثير من المكر الطبيعي. ويضيف ويلسن بأنه كان يقع فريسة لنوبات فجائية من العاطفة والهياج الوحشي. وكمعيار لتقييم شخصية الشيخ محمود انذاك فقد ذكر في كتاب ويلسن ان في كُردستان الجنوبية يوجد في مقابل كل واحد يعارض تعيينه (يقصد ملكاً أو حاكماً عاماً لكُردستان) أربعة آخرون يقررون تعيينه ويرحبون به. ولكنهم وجدوا ان هذا النفوذ بهذه النسبة تقتصر على منطقة السليمانية* (١٨٧).

* أبدت بعض الشخصيات الكردية في كركوك وأربيل عدم تقبلها لفكرة الشيخ.

واما محاكمة الشيخ محمود فهي من وجهة نظرنا درس تاريخي بليغ اسداه الشيخ محمود الى لاعدالة بريطانيا مع الكُرد، لان ويلسن يذكر انه كان متعاطفاً بصدور الحكم على الشيخ محمود بالسجن المؤبد بدلاً من إعدامه والذي يسميه (الحكم المنطوي على الرأفة) ولكنه أي ويلسن عارض هذا الحكم أي ان ويلسن بالرغم من مشاعره الشخصية كان راغباً بإعدام الشيخ محمود لانه كما يذكر ان الشيخ طالما بقي على قيد الحياة هو واتباعه فأنه سيعيش مؤملاً نفسه بالعودة الى الحكم في النهاية ويعيش أعداؤه وهم في خوف من عودته هذه وان موته سيؤدي اكثر من أي شيء آخر الى عودة الاستقرار والطمأنينة الى البلاد.

نحن نعتقد ان رغبة ويلسن في إعدام الشيخ محمود تمثل رغبته في اعدام القضية الكُردية المتمثلة انذاك بتأسيس دولة كردية، ولعل القاريء يستطيع ان يقارن بين الاخلاقية الانسانية للشيخ محمود التي ذكرناها انفاً وبين اخلاقية ويلسن الذي جاءت بعظمة لسانه.

ان الصفعة لايشترط بها -أحياناً- ان تكون باليد بل قد تكون بالاشارة... نحن نعتقد ان الشيخ محمود عندما كان جريحاً وراقداً في المستشفى اسيراً ينتظرون شفاءه لكي يحاكموه، صفع ويلسن صفعة تاريخية لانشك ان ويلسن العملاق اصبح في تلك اللحظة قزماً امام ذاك الأسير الجريح اذ يذكر ويلسن انه عندما زاره في المستشفى انكر الشيخ بإيماءة ذات مغزى حق المحكمة العسكرية في محاكمته، وتلى عليه بند ويلسن الثاني عشر، والبيان الإنكليزي الفرنسي الصادر في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٨ وكانت ترجمته الكُردية وقد كتبه له على احدى الورقات الملحقة بنسخة من القرآن الكريم وشدت حول ذراعه كالطلسم (١٩٥).

محمود مصرف (رئيس الوزراء)

يذكر ريج زيارة محمود آغا مصرف رئيس وزراء السليمانية له، وهو شخصية معروفة في كُردستان وغالباً ما سمع عنها في بغداد. وقد جاء ليعلمه ان محمود باشا أمير بابان سيزوره شخصياً الزيارة الأولى مرحباً بقدومه إلى بلاده (٥٠).

ويبدو ان محمود آغا مصرف كان شخصية فعالة متحدثة ومضياف كما انه كان رياضياً (٦٤) وكثيراً ما يصفه ريج بصديقي الرياضي وقد لاحظ ريج ان محمود مصرف كان قد اعطى كثيراً من الحرية لابنائه الكُرد، ونعتقد ان الروح الرياضية كانت هي التي تطغى على شخصية محمود مصرف وهذا مما جعله ان يكون متساهلاً أو غير تقليدي في علاقاته مع ابنائه (٦٤). ويذكر ريج ان محمود مصرف كان محباً للخيل وكثير الحديث عن انسالها وكان قد اهدى جواداً إلى ريج (٨١).

مصطفى البارزاني

لقد كتب وليام دوگلاس الذي كان عضواً في المحكمة العليا الفيدرالية في واشنطن وهو احد الشخصيات المهمة في الشؤون الكُردية، مقدمة لكتاب شميدت الصحفي الذي زار كُردستان في أوائل الستينات من القرن العشرين.

يذكر دوگلاس، في مقدمته لكتاب شميدت ان قائد الكُرد وزعيمهم في عام ١٩٥٨ كان (مصطفى البارزاني) الذي عرفته صديقاً وتاريخ الكُرد الذي سرده دانا ادم شميدت هو تاريخ سمعته من شفتي حمزة (٧).

وكذلك يذكر دوگلاس انه تعرف على (مصطفى البارزاني) بعد ثورة عبدالكريم قاسم (١٩٥٨) اذ عاد الى العراق ويقول دوگلاس قلت له في اول مقابلة لي:

- انبئت بأنك علماني المبدأ.

فوثب واقفاً في الحال وصاح.

- ارني دليلاً! ارني دليلاً!

قلت متعمداً اثارته

- كنت ضيفاً على الروس اثنتي عشرة سنة

فأجاب:

- لأنقذ عنقي.

ولما تبين أني أمزح زال عنه التوتر.

ويسترسل دوگلاس، ان هذه البداية الفضة كانت فاتحة صداقة حميمة وقد اكتشفت في (مصطفى البارزاني) تلك الجمرات المتقدة للوطنية والتحرر في كل امريكي للعام ١٧٧٦. أي عام الثورة في سبيل الاستقلال الامريكي (٩-١٠).

- يؤكد دوگلاس ان احاديثه مع (مصطفى البارزاني) في بغداد، لم تدع له أي حجة للاعتقاد بأنّه يريد العمل لبناء دولة كردية وكان ينشد آنذاك كما ينشد الآن حكماً ذاتياً ويعني بالحكم الذاتي عموماً ما نسميه ممارسة حكم اهلي في ظل نظام فدرالي (١١).

يذكر وليام إيگلتون وهو يكتب عن جمهورية كُردستان عام ١٩٤٦ في كتابه الصادر ١٩٦٢، ان (مصطفى البارزاني) بالرغم من قوامه المتوسط كان مهيب الشكل. له عينان متألقان تعمقان في خطوط العزم لوجه يتسم بالقوة والذكاء.

ان سمتي الثبات والجرأة مطبوعان في فكره وجسمه وبالرغم من تحصيله على المبادىء الاولية من التعلم على يد ملالي* القرية فقط لكنه استطاع ان يمسك بصلب الموقف واظهر براعة دبلوماسية وعسكرية في تحقيق اهدافه. كان عالي الثقة بنفسه وعنيداً.

كان مدركاً للنواقص في فرص تعلمه ومعجباً بالكُرد الذين اعدتهم ثقافتهم لتقديم خدمات عليا لشعبهم. ومن هنا كان موقفه إزاء الطلبة الأكراد الذين ضجوا فيما بعد مطالبين الالتحاق بصفوف القتال من اجل القومية الكُردية، ولكنه بدلاً من قبولهم كان يحثهم على التمسك بكتبهم (أي بدراستهم). وهذا ما كان يجعله ايضاً يحترم القاضي محمد.

اما الخصائص التي تفتقر الى الاطراء في (مصطفى البارزاني) فكانت المركزية حول الذات وانتهاز الفرصة وقصر النظر وصعب المراس.

ويستطرد إيگلتون، ان مثل هذه الشخصية المركبة بإمكانها ان تبعث وبشكل واسع عواطف وآراء متباينة بين الاشخاص ممن عرفوه أو كانوا ملزمين للتعامل معه. (٥١)

والحقيقة لنا تعليق على ما جاء في وصف ويليم إيگلتون، ان كتابه حول جمهورية كُردستان كتاب قيم اقتنيته وقرأته عندما كنت أعمل في المملكة العربية السعودية عام ١٩٦٧/٦٦. وكان هذا الكتاب الشريان الوحيد الذي يربطني من السعودية بكُردستان.

نعتقد ان إيگلتون غير دقيق في وصفه لـ(مصطفى البارزاني) بشعوره بوجود نواقص في فرص تعلمه. نقول لنفرض كان (مصطفى البارزاني) له هذا الشعور ولكن من أين أتى وليم إيگلتون بهذا الكشف. هل صرح (مصطفى البارزاني) يوماً بهذا التصريح؟ إذن كان عليه أي على المؤلف ان يذكر ذلك. هل اخبره احدهم انه سمع عن هذا الشيء؟ فمن هو؟ ومع ذلك فهذا ليس مما يفقد الإطراء من وجهة نظرنا الشخصية لـ(مصطفى البارزاني) فماذا يفعل ان لم تتح له فرص الدراسة في قرية كتب الله لها ان تكون عاصمة النضال الكُردي حتى قبل مولده؟ اما مصطلح الـ Egotism الذي أورده إيگلتون في كتابه فهو مصطلح نفسي معناه التمركز حول الذات أو بلغة نفسية علمية التمحور حول (الأنا) وفي اللغة الادبية الانانية.

نود ان نقول لوليم إيگلتون ان هذا الذي سمعه عن (مصطفى البارزاني) هو سمة من سمات أي قائد في فترة النضالات السلبية. ان المركزية العالية للقائد العسكري لاسيّما في الشرق وعبر التاريخ هي من متطلبات نجاح القائد.

نعتقد انه لمن الجنون ان يطالب القائد العسكري ابان الحرب أو العمليات العسكرية بالتخلي عن ذاتيته وارساء الديمقراطية. وحتى فترات اللاحرب التي عاشها البارزاني في

* ملالي والمفرد ملا: رجل دين، والكلمة غير عربية.

كُردستان العراق أو كُردستان إيران لم تكن سلاماً بل كانت هدنة. والهدنة حرب صامتة.

اما قصر النظر التي جاءت كواحدة من سماته، فأيضاً نقول لإيگلتون، كيف تصف شخصاً بالبراعة الدبلوماسية والعسكرية من دون تعلم. ومنعه للمتطوعين من الطلبة للإنضمام الى صفوف المقاتلين وحثهم على التمسك بالثقافة والتعلم وتعود لتصفه بقصر النظر Short sight-edness الحقيقة كان على إيگلتون ان يتذكر كيف استطاع ان يفلت هذا القائد بمناورة ذكية من يد القوات الإيرانية والعراقية ويشق لنفسه ومئات الرجال معه طريقاً الى أراضي الإتحاد السوفيتي عبر خطة محكمة. كان لنا شرف إعداد حلقات مسلسلة عنها في جريدة التآخي عام ١٩٧٢.

وكذلك فهو ادرى كم كان هذا الرجل مناوراً وعسكرياً طوال حياته وهو لم يتخرج في كلية الاركان البريطانية لكننا نعود ونذكر ان إيگلتون يعترف في مقدمته ان بعضاً ممن اعطوه المعلومات رغبوا في عدم ذكر اسمائهم أي المعلومات الواردة في الكتاب برمته.

يذكر شميدت انه حاول عند لقائه بـ(مصطفى البارزاني) عام ١٩٦٢ ان يذكره بمقابلة صحفية اجراها معه في كانون الاول ١٩٥٩ أثناء ما كان مقيماً في بغداد لكنه اجاب انه لايتذكر المناسبة معرباً عن اسفه (٢٨١).

لقد لاحظ شميدت ان (مصطفى البارزاني) يرزح تحت وطأة همّ إذ كان قبل سنتين ونصف السنة في بغداد يبدو هاشاً باشاً لطيفاً مستجماً، واكثر وزناً اما الآن فان الخطوط في وجهه قد ازدادت عمقاً وبدت عليه تعابير الجلال والخطورة حتى لكأن كل مسؤولية الثورة التي تعودها قد ناء بثقلها عاتقه. وهو يرتدي الزي الكُردي المألوف الازرق والابيض، لايفضل به على ثياب رجاله ولايقل عنهم. كما ولاحظ شميدت انه كان يشغل نفسه بمدية في يده وعيدان خشبية.

ويعبر شميدت عن دهشته عندما خمّن بعد أيام ان الطعام في مقر (مصطفى البارزاني) قد يكون اسوأ من طعام أي قرية صادفها في الطريق فهو لايخص نفسه ولا مَن هم من حوله بالأطايب (٢٨٢).

ان هذا الإنطباع جاء من إجتماع شميدت بـ(مصطفى البارزاني) على مائدة واحدة ومن إجتماعه مع الآخرين على موائدهم والاشتراك معهم في الطعام.

ولاينسى ضمن ملاحظاته ان يؤكد قيام (مصطفى البارزاني) بغسل يديه بالماء والصابون قبل وبعد الطعام. ولقد لاحظ معظم الرحالة هذه الظاهرة عند الكُرد وذكرنا ذلك في موقع آخر من هذا الكتاب.

عندما توجه شميدت اليه بعبارة Mon General فالتفت اليه (مصطفى البارزاني) قائلاً، لست جنرالاً، اني مصطفى لا غير، قل لصحيفتك اني لا اهتم قلامة ظفر بالالقاب واني لست الا فرداً من الشعب الكُردي.

ان شميدت يعلق على ذلك انه لم يستطع حمل السلاح نفسه بأن يناديه بإسمه المجرد، وان وجوده كان يتطلب شكل من المخاطبة كثيرة الإحترام وهذا ما لاحظه في الاشخاص المحيطين به (٢٨٣) لقد عايش شميدت (مصطفى البارزاني) وتبعه من مكان الى آخر وجلس معه وتحدث اليه ملياً حتى -كما يذكر شميدت- انه أي (مصطفى البارزاني) تعود عليه واخذ يتكلم بحرية وانطلاق.

انه يصف شخصيته بالرجل الذي لاتفارقه كرامته ورصانته في كل الظروف. قد يغضب، الا انه لاتأخذه سورة منه وقد يضحك ولكنه لايقهقه، ويصر على ان يأكل مع رجاله أو على الاقل ان يأكل ما يأكلون، وفي اغلب الاحيان يقطع مشياً على الاقدام المسافة التي يقطعونها بدلاً من امتطاء الخيل أو البغال الميسورة له دائماً.

ومع انه يظهر بهذه المظاهر الديمقراطية الا انه يحافظ على ما اعتبره -تحفظاً ارستقراطياً- انه قد يمزح مع زائر ولكنه لايزيل الكلفة من بينهما.

وبقدر ما امكن شميدت ان يستنتجه ان (مصطفى البارزاني) لم يكن لديه رفيق يخصه بود فائق، ويتغير الرجال من حوله تغيراً مستمراً لايمكن لأحد ان يدعي بانه المقرب والادنى وصاحب النفوذ المطلق عليه. وليس يوجد له (ساعد أيمن) بين المعاونين ولا (مرافق ملازم). ان طريقته في تبديل حلقة الرجال التي تحيط به دائماً احتياطاً امنياً ومن جهة ربما اسلوبه السياسي للابقاء على اتصاله المباشر بأوسع مجموعة من افراد شعبه. فيبني حمايته السياسية مع كثير من الافراد وكثير من القبائل ويستطيع ان يكون في منتهى الظرف والسحر كما يستطيع ان يصل احياناً الى حدود الخشونة (٢٨٤).

ويذكر شميدت ان (مصطفى البارزاني) يملك ذهنية سياسية متطورة جداً تعينه على التغلغل عميقاً حتى يصل النتيجة النهائية أو الى القلب من المسألة في حين تجد الآخرين ما يزالون غائصين في التفاصيل.

وكانت تنقلاته سرية دائماً، ويعلق شميدت قائلاً، مع ان المفروض فنياً اننا مرتبطون به ارتباطاً وثيقاً فقد نستيقظ يوماً بعد يوم لنجد ان البارزاني قد (اختفى) أثناء الليل وانتقل الى معسكر آخر جديد لايعرف موقفه بالضبط الا قلة من المقربين كالرجال المسؤولين عن امور حياته اليومية وافراد حرسه الخاص.

وقد لاحظ شميدت انه من الصعب انتزاع جواب مباشر عن اسئلة مباشرة من (مصطفى البارزاني) ولكنه يميل ان يضع اراءه بطريقة ضرب الامثال. ويأتي شميدت بمثال على ذلك مكن خلال سرده لحكايتين رمزيتين شعبيتين اراد منها (مصطفى البارزاني) افهام شميدت واقع حال القضية الكُردية (٢٨٤-٥).

يذكر شميدت ان (العدالة) هي محور حديثه المفضل، وبرأيه ان الشعراء والفلاسفة والحكومات يتحدثون عن العدالة، انهم يتحدثون عن الرحمة وسلامة النية. لكن القوة وحدها هي المعوّل عليه في حياة الشعوب، وقد جاء (مصطفى البارزاني) بأمثلة على ذلك مستقاة من التاريخ الكُردي (٢٨٧).

ولعل الوصف الاتي يعطي القارىء صورة جميلة للحياة اليومية (الاعتيادية) لهذه الشخصية القيادية.

اذ يذكر شميدت ان في صبيحة يوم قارس كثير الضباب من أيام شباط ١٩٦٣ وفي اراضي براح خارج بلدة قلعة دزه في كُردستان العراق كان (مصطفى البارزاني) القائد العام للقوات الثورية الكُردية يقف وحده وقد سمح ان يلتقط مصور زائر صوراً له من كل الجهات. ها هنا رجل متين البنيان الى درجة غير عادية دمث الطباع وقور السمت، نفاذ العينين. على انه الان يبتسم ابتسامة فيها ظل من التهكم والغموض.

والى مسافة تقرب من مائة قدم كان يقف بإحترام جمع قد يبلغ مئة من ضباط قوات (مصطفى البارزاني) والوجهاء المحليين. يتقدم (الجنرال) بخطى وئيدة نحوهم، كان يسير سير الواثق بساق ثابتة ومشية عسكرية، وهو يبتسم، فتنفرج صنوف الرجال امامه كأنها تفسح له هيبة وجلالاً وكان على المرء ان يطلب منهم الدنو والوقوف الى جانب الرجل العظيم كي يلتقط صورة وهو في وسطهم.

يرتدي (مصطفى البارزاني) ثياباً لاتمتاز بشيء عن سائرهم، بذلة وطنية رمداء - بيضاء بسيطة ويشد فوق خصره حزأمين من الرصاص ويعتمر بالعمامة الحمراء والبيضاء التي تميز بني قومه، وهو متوسط القامة الا انه يشمخ كالبرج الاشم فوق رجاله، أو هو كالعملاق في وسطهم.

ان (مصطفى البارزاني) رمز الحركة الوطنية الكُردية وهو الرأس المفكر لثورة الكُرد العراقيين والقائد العسكري والزعيم السياسي، القلب والدفاع، الرجل الذي يتمتع بأعظم الحب في كُردستان، الرجل الذي يشيع اعظم الرهبة في كُردستان (١٤٠).

ولـي الأربيـلـي

الحـاج ولي الأربيـلي احد الشـخصـيـات الكُردية التي التـقـاها سـون في دياربـكر ولم يكن الحاج ولي زعـيم قبـيلة أو شخصـيـة حكومـيـة ولقـد اثرنا ان نكتـب عن لقائه بـه لما يـتـمتع بـه من سمات مميزة.

يبدو ان الحاج ولي الأربيـلي كان في دياربـكر وهو في طريقـه الى الموصل عائداً من تركيـا وقد سـمع ان سون يزمع السـفر بواسطة الكلك عبـر دجلة فجاء يبحث معه امكانيـة السفر معـاً ويعلمه ان هناك (كلك) مهيئاً.

كان يرتدي رداءاً طويلاً ومشد خصر من لباد من طراز كردي جنوبي وقدم نفسه باسم الحاج ولي الأربيلي وكان يتكلم الكُردية وقليلاً من الفارسية والعـربية والتركية واعلم سون بانه عائد من حجته الـ(١٧) إلى مكة.

لقد كان على حد تعبير سون ذا خلق معتبر مـبادر وكان يراوغ في تطمينه وقد اعتاد على الإحترام بسبب من الـ(١٧) حجة إلى مكة لذلك لم يكن ليـستسيغ أي رفض لمقترحاته. لذلك عندما اقترح عليه ان يسـميه (موسى) واخذ يناديه بابني الحبيب وان يشتـرك في نفقات السفر وافق سون.

يصف سون المواد التي ابتاعوها كعدة للسفر ولكن ما يهمنا من هذه الرفقة بينه وبين الحاج الأربيلي مـلاحظة سون ان هذا الرجل طلب منه شيئـاً غيـر متوقع، يـقول سون، ادهشـني بعد ان اضنانا السـوق بطلب لايشبـه ما يطلبـه الناس هنا، لقد اخذ بذراعي وقـال، موسى يا بني! بـعد تعب النهـار دعنا نذهب الى بقعـة هـادئة بين الاشجـار على الشـاهق الـصـخري نجلس ونحلق ونتملى المنظر.

إن سون استغرب من هذا الطلب الذي يتضمن التنعم بمشاهدة الطبيعة!

يقـول سون لقد قـبلت ذلك حـامداً شاكراً وعندما كـانا في العـراء امام الطبـيعـة عبّر الشـيخ الأربيلي عـن أحاسـيسه بعبـارة طويلة (الله اكبر) ثم اشـار الى سون بان ينظر الى جمال مـجرى عظيم يتـدفق مـاؤه عـارمـاً وضفتـاه الملونتـان بلون اصفـر والشـجر المخضـوضـر اخضراراً فـاتحـاً نابضاً بحياة سنة جديدة.

وجلس الشـيخ صامـتـاً مرة أخرى وارسل النظر بعـينين ضـيقـتين الى الجـبال البعـيدة ومـا ان عاد الى الكلام الا تدفقت روح كردي جبلي بكلمات خشنة وبلهجته الخاصة.

ان الله، اللـه، الله غـيـر المنظور، تـتـجلى عظمـتـه وجـلاله في اعـيـننا ورحمـتـه في قـلوبنا

وعقولنا. ويحاول الحاج ولي الأربيلي ان يشرح فلسفته في الخالق والكون بيد ان سون يخلص الى ان الشيخ كان يعاني من شيء من الازدواجية ويذهب الى ان هذه الحالة (الشخصية المزدوجة) وجدها في فارس بكثرة ويمكن ان نستنتج من مجمل إنطباعات سون حول هذا الشيخ هو انتقاله بين اقصى الواقعية واقصى الخيال، ولقد وجده في موقفين خرج منهما الشيخ عن طوره اولهما حين رشق بعض قطاع الطرق (الكلك*) بالنار اذ يقول سون لقد عني كل منهم باتخاذ البالات درعاً له وعلى الرغم من انهم كانوا يعلمون باننا سنتجاوز الازمة لكن دم الكُردي العجوز -ويقصد الشيخ ولي- فار لمجرد تصوره انه لم يكن مالكاً بندقية يجيب باطلاقاتها على اطلاقات مهاجمينا. اما الجندي التركي الذي كان مسافراً على الكلك فقد حشر نفسه بين اكياس المشمش وجماعة الكلك اما الموقف الثاني فقد رأى الشيخ الورع وهو يشتم الأتراك وبعصبية بالغة فقد كان لدى الشيخ العجوز جواز سفر اعطي له عندما ترك الجيش قبل ٣٥ عاماً أيام السلطان عبد العزيز وقد اجبر على دفع مجيدي لانه على هذا الحال من القدم (٩١-١٠٨).

يعقوب باشا

يذكر نوئيل في مذكراته العشائر الكُردية في كُردستان الشمالية التي زارها ويصف رؤساء هذه العشائر، وكان هدف نوئيل مع الوفد الكُردي الذي كان يصاحبه دراسة مشروع تأسيس كُردستان مستقلة في تركيا على ان تكون تحت الانتداب البريطاني.

لقد التقى نوئيل في جولته تلك عام ١٩١٩ بعدد من رؤساء العشائر بيد اننا اثرنا اختيار واحد من اولئك الرؤساء نموذجاً لفترة ما بعد الحرب العالمية الأولى في منطقة ما يسمى اليوم بكُردستان تركيا.

يذكر نوئيل ان يعقوب باشا رئيس عشيرة (أتمي) الكُردية هو نجل سليمان آغا بن محمد آغا بن باز آغا بن اساف آغا بن إبراهيم آغا، وله شقيق واحد واسمه شيخ محمد وهو متزوج من ابنة تابو آغا.

لقد كان نحيف البنية طوله خمسة اقدام وتسعة انجات وتعلو وجهه تعابير، هي مزيج من القلق والشك والمكر، ولكن ربما كان السبب في هذا المزيج من الملامح زجه في السجن في السنة الماضية، أي السنة التي سبقت لقاء نوئيل به. فقد سجنه الأتراك تسعة اشهر بتهمة

* الكلك: مجموعة من جذوع الشجر المنزوعة اللحاء والمرصوصة على قرَب منفوخة لتصبح طوفاً يجري في النهر وكان يستخدم كواسطة نقل للأشخاص والبضائع ينساب مع مجرى الماء.

مساعدته (العصابات قطاع الطرق) وطبيعي هذا المصطلح وما يشابهه من المصطلحات التي تزدحم بها قواميس الحكومات المتعاقبة والمقتسمة لكُردستان، تطلقه على كل رجل أو فئة يناضل من اجل تحرير كُردستان ومن اجل حق تقرير المصير لهذا الشعب.

كان يعقوب باشا حسن الاطلاع ولكن يبدو عليه الاندفاع والاثارة ويمكن ان يتحسن كثيراً لو عومل معاملة جيدة، ولكن كرهه للأتراك مسألة واضحة تماماً وقومي متحمس للكرد (٣٩).

وفي موقع آخر من مذكراته يقول نوئيل، انه حوسب مع عشرين شخصاً كانوا في معيته. وقد قام الأتراك بضرب هؤلاء المرافقين العشرين لينتزعوا منهم الشهادة ضد يعقوب باشا.

تسعة منهم صمدوا ولم يذعنوا اما البقية فقد اذعنوا وادلوا بما كان المطلوب منهم ان يقولوا. انه ليس من الصعب لان نتصور مدى ما يشعر به يعقوب باشا من مرارة واسى بإزاء الترك، ولكنه في هذا المجال ليس الوحيد اذ يشاركه الزعماء الكُرد هذه المشاعر في المنطقة بأسرها (١٣).

التجارة والإقتصاد

يتضمن هذا الفصل عرضاً لإنطباعات ومشاهدات عدد من الشخصيات التي زارت كُردستان وهي غير متخصصة في الإقتصاد أو التجارة بيد انها سجلت في مذكراتها نتفاً عن الواقع التجاري والإقتصادي. الحقيقة لايمكن الكتابة والتعمق في هذا المجال والمؤلف محدد بحدود كتابه الواضح من عنوانه من جهة ومن جهة أخرى وهي الأهم ان الواقع الإقتصادي يرتبط بالواقع السياسي حتماً، أي الإقتصاد في ظل المؤسسة السياسية. ولما كانت مثل هذه المؤسسة غير واضحة المعالم لا بل لا هوية حقيقية لها، لأن كُردستان التي زارها الرحالة وكتب عنها المستشرقون ليس لها وجودها السياسي الموحد من جهة ومن جهة أخرى فأن اقتصادها خاضع إلى قطبي جذب كبيرين وهما دولتي إيران وتركيا. فبالرغم من ان المنطقة منطقة إنتاج اقتصادي لكنه كان ولم يزل اقتصاداً تابعاً وليس مستقل بسبب العلاقة الجدلية بين العامل السياسي والعامل الإقتصادي. هذا مما جعلنا ان لانجد ملاحظات (اقتصادية علمية محضة) في مذكرات وكتابات الرحالة والمستشرقين بل جاءت ملاحظاتهم وصفاً لما تنتجه المنطقة وحركة السوق من صادرات وواردات وضرائب.

وبالرغم من اقتضاب الفصل فاننا نعتقد انه يمثل صورة لا بأس بها عن الجانب التجاري والإقتصادي من وجهة نظر البعض ممن زاروا كُردستان ضمن الحقبة التي تبناها هذا الكتاب.

جاء في مذكرات ريج ١٨٢٨ لم تكن تجارة السليمانية تجارة واسعة، وهي بوجه عام منحصرة بين السليمانية والاماكن المدونة في ادناه، وتنقل بواسطة القوافل:

تبريز: تخرج عادة إلى تبريز قافلة واحدة في كل شهر، لكن ذلك لم يكن بانتظام. وتعود القافلة محملة بالقز، والاقمشة الحريرية وغير ذلك، ويصدر أكثر القز إلى بغداد اما الأقمشة فتستهلك في كُردستان، وصادرات السليمانية إلى تبريز هي التمر والبن وغيرهما من المواد التي تجلب عادة من بغداد.

أرضروم: تخرج سنوياً قافلة واحدة على الاقل من السليمانية إلى ارضروم، وهي تحمل التمر والقهوة وغير ذلك فترجع بالحديد والنحاس والبغال. وهم يشترون الكثير من هذه الحيوانات ويستوردونها واحسن بغال هذه البلاد من ارضروم.

همدان وسنه: تصل شهرياً من هاتين المدينتين قافلة صغيرة محملة بالدهن والفواكه المجففة والعسل والفولاذ الوارد من اطراف بحر قزوين.

كركوك: المتاجرة مع كركوك مستمرة دائمة، وتستورد منها الأحذية وبعض الأقمشة القطنية

الخشنة. اما صادرات السليمانية اليها فهي البقول والعسل والعفص والسماق والفواكه والرز والدهن والقطن والاغنام والمواشي. وكركوك في الحقيقة سوق رائجة لجميع منتوجات كُردستان.

الموصل: المتاجرة مع الموصل مستمرة بعض الاستمرار. وتستورد منها الأحذية والغتر والخام والاقمشة القطنية الملونة، ومنتوجات الشام ودياربكر وغير ذلك. اما الصادرات اليها فالعفص وغيره.

بغداد: المتاجرة بين السليمانية وبغداد دائمة وتستورد السليمانية من بغداد التمر والبن والمنتوجات الهندية والأوربية والاقمشة. اما الصادرات اليها فهي البقول والتبوغ والجبن والدهن والسماق والصمغ والشحم والصابون الاعتيادي- صابون الشحم. (٢١٧-٨)

يذكر سون الأحوال الإقتصادية والتجارية في مطلع القرن العشرين، فقد غدت السليمانية سوقاً لحاصلات كُردستان الجنوبية كلها، ذلك ان البسط كانت تردها فتباع أو تحمل الى الموصل وبغداد، وكذلك صمغ الكثيراء المستورد من بانه يباع في السليمانية ويفضل على بيعه في مدينة سنه في كُردستان إيران.

لقد نشط عدد كبير من كلدان الموصل في تجارة وسيعة رابحة قوامها الأقمشة القطنية الحلبية والمنسوجات الأوربية، فكانوا يبيعونها في السليمانية وكذلك يصدرونها إلى أماكن بعيدة في إيران.

واتخذت بعض الصناعات مقامها في الأسواق الوسيعة، وعلى وجه أخص صناعة الأحذية والسروج وصنع الخناجر والبندقيات وبنى رؤوس قبيلة الجاف الخانات والأسواق، وحصلت بينهم وبين تجار السليمانية صلات، فكانت تمر، خلال سوقها، جميع منتوجات هذه القبيلة الكبيرة كالجلود والصوف والتبغ والزبدة. وكانت قافلة بغداد تغادرها، وتصل السليمانية، كل أسبوعين، من الموصل واليها في الفاصلات الزمنية أنفسها. وكانت القوافل الراحلة تقوم على خدمة (بانه) و(مريفان) و(سنه) و(ساوجبلاق)* غالباً.

ويبدو ان السليمانية قبل ذلك الوقت كانت مركزاً تجارياً يجذب التجار من خارج السليمانية إليها، اذ يضيف سون، قد ذكر له ان في سنة ١٨٨٠ كان في السليمانية ٥٠ تاجراً من كلدان الموصل و٢٠ من تجار همدان الفرس.

لقد ضمت التجارة باستثناء تجارة التموين المحلية آنذاك بما يزيد على نصف مليون ليرة سنوياً لكن سون يبدي تحفظه على هذا الرقم وهو يضعنا أمام الرقم ٤٠٠٠٠٠ من الليرات في

* هذه مدن أربع في كُردستان إيران قريبة من السليمانية في كُردستان العراق.

سنة طيبة.

لقد ساءت الأحوال الإقتصادية في هذه المدينة كما يذكر سون بسبب طغيان الحكومة التي أخذت تبتز ضرائب غير عادلة، وكادت ان تسقط المدينة إذ ثارت عام ١٨٨١ وقاومت أربعة أيام بعد ان استدعي الهماوند وطرد المتصرف والشيوخ بيد ان فوجاً وصل من كركوك وسيطر على المدينة وسلمها الى الروحانيين.

نستنتج من مذكرات سون ان اقتصاد المدينة اصبح تحت رحمة المستغلين المتنفذين، وانتشرت العيون الراصدة في السوق وفي دكاكين الحرفيين لتنقل المعلومات.

يذكر سون ان الشيوخ اشتروا جميع البساتين التي تحيط المدينة وهي التي تجود عليها بالفاكهة والخضر، ثم جاء فرض ضرائب جديدة بالاتفاق مع سلطات المدينة فشملت الحاصل والمنتوج، ثم بدأ الشيوخ بنظام محصلة دفع ٣٠٠ بالمائة على احمال الفاكهة التي تدخل المدينة باعتداد ذلك (رسم دخول خاص)... لذلك عمد كل مزارع، في غضون سنتين، إلى إشعال النار في أشجار الفاكهة التي يملكها وفي تخريب قنوات الارواء العائدة له ثم الهروب من بعد ذلك إلى إيران لزراعة التبغ هناك. (٢٤٠-٢٤٢)

بعد ان أعطانا سون صورة للوضع الإقتصادي والتجاري في السليمانية، يمكن العثور في موقع آخر من مذكراته على مشهد عملي في التجارة آنذاك أي في الفترة التي مارس فيها الميجر سون مهنة تاجر دهن (رون) أي في جيئته الأولى (التنكرية) بصفته ميرزا غلام التاجر الفارسي.

كان لسون تابع كردي اسمه (حمه) يقوم على خدمته ومرافقته ومساعدته في أعماله التجارية.

يتحدث سون عن أولى صفقاته في بيع السمن بالجملة وبعد ان عين الثمن يذكر ان قيمة الربح من الصفقة كانت ٢٥٪. ولوزن البضاعة كان هناك في السليمانية وزّان مهمته وزن البضائع.

يذكر سون انه كان لايعرف كيف يمكن للبقال ان يربح ولكن عند انتظارهم للوزان ان يأتي، فقد جلس سون عند بقال يبيع البضاعة بالمفرد، فلم يكن ميزانه من اصح الأنواع اولاً، وعندما يزن السمن كان يترك في كفته الملعقة الخشب الثقيلة التي يلعق الدهن بها، ان استطاع إلى ذلك سبيلا، ولو كان الطلب لكمية كبيرة فتكون المساومة على السعر ولعل المشتري يستطيع الشراء بوزن معقول، لكن المشتري الصغير، الذي يأتي الى ابتياع كميات صغيرة، كان يخدع دوماً، وذلك اما عن طريق احتساب السعر، ولعله لن يستطيع هو احتسابه، أو بالكمية

الناقصة التي تعطى له. (٩-١٠)

ترى هل كان هذا البقال الذي جلس سون عنده ينتظر الوزان (صدفة) ام هي سمة البقالين في السليمانية أو في كُردستان في تلك الحقبة؟ لن نستطيع ان نجزم دون دراسة ميدانية للبقالة اليوم على الأقل وعموماً فأن المستهلك أي الذي يبتاع بالمفرد أو كميات قليلة هو الخاسر أو هو الذي تسهل عملية ابتزازه حتى من دون ألاعيب الملعقة الخشبية الكبيرة، بل بسبب احتكار التجارة للمادة وفرض الأسعار وانصياع المستهلك واضطراره.

يذكر سون مصادر حصوله على مادة السمن فقد كان يستورده من حلبجة إلى السليمانية ويرسل بـ حمه تابعه إلى حلبجة لاستلام الشحنة، وهذه الشحنة في الحقيقة هي مجموع ما كان يجمعه اليهودي (مخا) الذي كان بدوره يتجول في الشوارع والأزقة ويشتري السمن تدريجياً إذ يذكر سون ان الأكراد يخزنون الدهن النفيس أبان إعداده على ترقب الشاري، والحقيقة فأن سون كان قد سلف (مخا اليهودي) مالاً بكفالة (منصور النصراني) في حلبجة لجمع شحنات الدهن له التي يتسلمها حمه بدوره ويأتي بها.

ان حمه، وكما يذكر سون- على عادة الأكراد- لم يوافق الذهاب إلى حلبجة صفر اليدين لذا قضي الأمر على أساس ان يأخذ حملاً من الأحذية وأشياء أخرى، لتباع إلى أصحاب الدكاكين في حلبجة (١٧) .

ويضيف سون أسلوب التعامل في البيع والشراء، وقد استدعى صاحب دكان الأحذية الذي جمع من جيرانه ومما لديه كمية كافية من الأحذية، ولكي يقلل من النزاع على السعر استدعى نصرانياً فهذا من غير دين البائع المسلم والميجر سون (ميرزا غلام المسلم الشيعي) لذا يصح الفرض انه كان في منجاة من التحيز، بالمحاباة أو المعادلة بالنسبة إلى أي واحد من البائع والشاري. وكما كان لزاماً ان يساوم على كل زوج من الأحذية، على حدة، لذلك استغرقت العملية، من الوقت مدة. كما ان العادة تقضي بمراعاة بعض الشكليات المقررة. فالمالك يذكر، اولاً سعراً خيالياً، واقتصاداً في الوقت كان المالكون الآخرون يرفعون عقيرتهم، قائلين (انزلوا) ثم يكررون ذلك، حتى يبلغ السعر الحقيقي تقريباً، وعندها يتقدم (المحكّم)، وبعد نقاش صغير، يحسم السعر على منتصف الطريق بين رقمي المشترين والبائعين تقريباً، وعلى الطرفين قبول ذلك لزاماً.

ويؤكد سون انهم لم يستطيعوا شراء ٥٠ زوجاً من الأحذية إلا بعد خمس ساعات من المساومة وقد اشترى حمه مواد أخرى ايضاً مثل ورق السكاير و١٢ مسبحة ورحل في اليوم التالي لجلب شحنة السمن من حلبجة (١٨).

ويعلق سون على التجارة في الشرق آنذاك ان من عوامل إفلاس التاجر احياناً، الحذق (المهارة) والحصافة (الإحكام أو الإتقان العقلي) لا العجز التجاري وعدم الكفاءة. ويعطينا سون مثالاً عن أحد التجار الذي أفلس مرتين في السليمانية (١٩).

ولاينسى سون ان يفسر أسباب ظهور قطاع الطرق في كُردستان بالرغم من إعجابه بأخلاق الكُرد عموماً، وهو يتحدث عن مناطق في كُردستان تركيا، إذ يذكر ان الظروف صيرت الكُردي قاطع طريق والى ابعد مدى وهو يتحدث عن قبائل حسنان وسبيكان وحيدران وأدامان وزركان، ويجمع سون بين عاملي الطبيعة والسياسة، حيث المناطق الجبلية التي لاتجود بكثير من الموارد وقلة المدن التجارية وكثرة المشكلات الحدودية واضطرار الكُرد إلى الإفلات من جام غضب البلدان التي تجتاح المنطقة (١٨٣).

لم ينس برانت (١٨٣٨) الحديث عن الاحوال الإقتصادية والتجارية للمناطق التي زارها في كُردستان تركيا ولكنه ركز في ملاحظاته وإنطباعاته على موضوع الضرائب والجباية وتذمر الناس منها.

ان من المراكز التجارية التي استرعت انتباه برانت مدينة بتليس إذ يصفها بالمركز التجاري الهام لا بل هي أهم مركز تجاري زاره برانت حسب ما جاء في مذكراته.

ويذكر برانت بعض البضائع التي تستورد مثل بعض أنواع الأقمشة الإنكليزية والسكر المنقى ويبدو ان هذه المدينة قد اشتهرت بصبغ الأقمشة وتصديرها كما وانها تنتج الأقمشة القطنية وتصدرها ايضا حيث يزرع القطن في مناطق شيرفان جنوباً وخارزان إلى الغرب كما ويستورد بعضه من منطقة خوى في إيران (٩٦-٩٧).

ان برانت يبدي إنطباعاً مشوباً بالدهشة إذ بالرغم من ندرة مادة القطن في كُردستان مثل ندرته في إنكلترا وان الغزول تغزل يدوياً فان قماش (الشيت) البريطاني أي المستورد يباع في هذه المناطق بأسعار واطئة ويتساءل ما إذا كانت بريطانيا قد أقامت مصانعها لتنافس هذا الإنتاج المحلي (٩٧).

يذكر برانت تجارة العفص والاصماغ التي تجلب من الجبال القريبة من مدينة بتليس وهناك نوعان من النباتات الصمغية النوع الأول يستخرج منه الصمغ الأبيض والثاني يستخرج منه الصمغ البني اللون وصناعة الاصماغ حرفة تدر ارباحاً متواضعة على أصحابها وهناك أشخاص يجوبون المناطق الجبلية حيث تجمع الجذور من الأرض ثم تثلم هذه الجذور كي تنضح مادة لزجة تتصلب بعد يوم أو يومين ثم يعود هؤلاء ليجمعوا الصمغ المتصلب (٩٧-٩٨) وقد ذكرنا هذا في موضوع الزراعة في كُردستان.